

## رعاية مقتضى الحال في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>

### التعبير غير اللفظي أنموذجاً

ملخص:

إن الدارس لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وحواراته يلمس أنها أتت على مجمل ما تتناوله البلاغة العربية في رعاية أحوال المخاطبين. وقد اخترت من ذلك كله جانباً مغموراً في حديث النبي صلى الله عليه وسلم يحسن ذكره وإظهاره لتكتمل صورة الإعجاز والجمال في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إنه "التعبير غير اللفظي في حديثه صلى الله عليه وسلم".

**Abstract:** Seeker of the Prophet 's sayings, peace and blessing be upon him and his wonderful conversations , he actually finds it in general is covering Arabic rhetoric concerning audience the conditions care .

I have chosen from all that one which is very significant issue may be it is not mentioned a lot about the Prophet, peace be upon him speeches . I want to stress the importance of the complete picture and beauty of miracles; in sense of Prophetic speech , peace and blessing be upon him ;he was "non-verbal communications or body language in his speeches."

### مدخل للموضوع

اللغة المنطوقة مهما كان جنسها وجرسها ففيها القدرة على التعبير، والدلالة عما يختلج في النفس من أفكار ومعان، ومع ذلك فإن ثمة وسائل أخرى تسهم بشكل كبير في كشف تلك الدلالات والمعاني، بل لا يستطيع المرء في بعض المواقف أن يعبر عما في نفسه إلا من خلالها حصراً، لا عجزاً في اللغة المنطوقة والملفوظة، ولكن المقام الذي يحيط به يقتضي ذلك، فربما لا يستطيع المخاطب أن ينطق لأي سبب فيلجأ إلى الإشارة، كما في قول الله عز وجل عن مريم عليها السلام حين ولدت عيسى عليه السلام، وأمرت في ذلك اليوم أن تصور وألا تتكلم مع إنسي ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً - يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امراً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً - فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ [مريم: 27-29]، فوجدت في الإشارة ما يغني عن العبارة.

وقد عرفه العلماء بأنه: رسائل التواصل الموجودة في الكون الذي نعيشه، وتلقاها عبر حواسنا الخمس، ويتم تداولها عبر قنوات متعددة، وتشمل كل الرسائل التواصلية حتى تلك التي تتداخل مع اللغة اللفظية والتي تعتبر من ضمن بنيتها. وتتجلى رسائل التواصل غير اللفظي عبر سلوك العين، وتعبيرات الوجه، والإيماءات، وحركات

الجسد، وهيئة الجسد وأوضاعه، والشم، واللمس، والذوق، والمسافة، والمظهر والمنتجات الصناعية، والصوت، والوقت ومفهوم الزمن، وترتيب البيئة الطبيعية والصناعية<sup>2</sup>. ويرى بعض الباحثين أن نسبة اللغة اللفظية في التعبير عن المعاني والمشاعر تتراوح بين 30%، إلى 35%، وقد تصل إلى 40%، بينما النسبة الأكبر للعوامل غير اللفظية، ويوصلها بعضهم إلى 93%<sup>3</sup>.

وقد تفضل العلماء من البلاغيين واللغويين وغيرهم إلى أهمية هذه العوامل في الدلالة على المعنى، وعدوها من أنواع البيان والبلاغة<sup>4</sup>، وقد سئل ابن المقفع (143هـ) عن البلاغة فقال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستمتاع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعا وخطباً، ومنها ما يكون رسائل<sup>5</sup>"، وتحدث الجاحظ (255هـ) عن البيان، مبيناً أنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وبأي شيء بلغت الإفهام ووضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع، ثم قال: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها: اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة.

والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة باننة من صورة صاحبها وحليته مخالفة لحليته أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقذارها، وعن خاصها وعمامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعمما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطاً مطرحاً<sup>6</sup>.

ويدخل في التعبير بغير الكلام: السكوت، ونبرة الصوت، والإشارات (الحركات) الجسمية، ونحو ذلك مما يريد به المتكلم الإبانة عن مقصوده، ويشمل الرسائل مصطلح (اللغة غير اللفظية)<sup>7</sup>.

إن هذا المقال يعتمد أساساً على ما كتبه الأستاذ الدكتور: يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي في رسالته الرائعة الموسومة بـ: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيجين "دراسة بلاغية تحليلية"<sup>8</sup> لقد شدتني أسلوبه الراقي وطريقة عرضه للموضوع مما جعلني حبيسه في ما اعتمد من مصادر ومراجع بل وفي طريقة تعليقه وعرض مواضيع البحث، ولست مبالغاً إن قلت إن مقالي هذا لا يعدو أن يكون اختصاراً وتهذيباً لما ذكره الدكتور في رسالته، ولم أزد على ذلك، وإن لم يكن في مقالي من

مزية سوى أنني قريت للقارئ هذا الإبداع الجديد في رسالتي الشيخ من خلال ترجمته اللغتي الصامتة في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فكان كافياً<sup>9</sup>.

### الموضوع

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل بهذه اللغتي (اللغتي غير اللفظية) على اختلاف أشكالها، وسأذكر منها ما يلائم حال المخاطب، مبتدئاً أولاً بما له علاقة باللفظ وهو الصوت، فالسكوت، ثم الإشارات الجسمية والفعل.

#### أ- حركات الرأس والإشارات الصوتية

يدخل ضمن اللغتي الإشارات النطقية غير اللفظية، التي تتمثل في استخدام نبرة الصوت على اختلاف درجاتها وأجسامها، والتي يمكن أن تحمل معنى، وتعطي إشارات صوتية منطوقته ذات خصائص معينة.

ومما ورد في ذلك في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ما يلي:

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: "ألا ثبايعون رسول الله" وكنا حديثي عهد ببيعتنا فقلنا: قد بايعناك، يا رسول الله. ثم قال: "ألا ثبايعون رسول الله" فبسطنا أيدينا، وقلنا: بايعناك يا رسول الله، فعلى ما نبايعك؟ قال: "على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتطيعوا" وأسَرَ كلمته خفية: "ولا تسألوا الناس شيئاً" فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه<sup>10</sup>، قال الشيخ: "فخفف الصوت إلى حد الإسرار بالكلمة إشعار لهم بأهميتها ما سيسمعهم إياه"<sup>11</sup>.

#### ب- الصمت.

الصمت أو السكوت خلاف النطق<sup>12</sup>، ويعرف السكوت على أنه السكون والإمساك والصمت وعدم الكلام أي أنه موقف من لا يريد التعبير عن فكرة ويمسك عن إبداء رأيه ويطلق عليه: الصمت، ويسكت المرء غالباً للدلالة على انتهاء الفكرة أو الفكرة من الكلام، أو انتهاء الكلام كله، وثمة دلالات أخرى للسكوت تتبين من سياق الموقف الذي حصل فيه، فقد يكون السكوت كناية عن الإذن والموافقة، والرضا والقبول، وقد يكنى به عن الحياء، أو الخوف، أو الغضب، أو الكراهية، وقد يراد بالسكوت التعريض بالانصراف عن المجلس، وغير ذلك من الدلالات<sup>13</sup>.

وورد الصمت والسكوت عن النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من كلامه وهو يحمل عدة دلالات بحسب الموقف الذي ورد فيه، ومما يتعلق منه برعايته حال المخاطب ما يلي<sup>14</sup>:

1- عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه وفي رواية أنها قامت فقالت: يا رسول الله، إنَّها قد

وهبت نفسها لك، فرَ فيها رأيك، فلم يجبها شيئاً، ثم قامت الثالثة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لك فرَ فيها رأيك<sup>15</sup>. فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست. فقام رجل من أصحابه فقال: إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها؛ فقال: "هل عندك من شيء؟" فقال: لا، والله، يا رسول الله. قال: "أذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئاً... الحديث<sup>16</sup>، وفي رواية مختصرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما لي اليوم في النساء من حاجة؟" فقال رجل: يا رسول الله، فزوجنيها فقال: "ما عندك؟" ... الحديث<sup>17</sup>. قال الشيخ: "وسكوته صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث كناية واضحة عن رفض العرض الذي تقدمت به المرأة، ولم يود أن يجيبها بالقول الصريح لئلا يحرجها بعد أن جاءت أمام الناس لتعرض نفسها عليه لكنها لما ألحت عليه بالعرض والسؤال ولم تكتف بدلالة السكوت قال لها: "ما لي اليوم في النساء من حاجة؟" وربما قال هذا القول بعد أن قال له الرجل: إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها. وهو قول لطيف من النبي صلى الله عليه وسلم، راعى فيه طبيعَةَ الأنثى التي يغلبها الحياء وتستكف من أن تخرج أمام جمع فيه رجال، قال النووي (676هـ) ذاكراً من فوائد الحديث: "فيه أنه يستحب لمن طلبت منه حاجة لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتاً يفهم السائل منه ذلك، ولا يخجله بالمنع، إلا إذا لم يحصل الفهم أي بصريح المنع فيصرح"<sup>18</sup>.

2- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذ قضى حديثه قال: "أين أراه السائل عن الساعة؟" قال: ها أنا يا رسول الله، قال: "إِذَا ضَبِعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ" قال: كيف إضاعتها؟ قال: "إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"<sup>19</sup>.

قال الشيخ: "ولعل سكوته صلى الله عليه وسلم كراهية للسؤال عن الساعة، إلا أنه لم يصرح بالكراهية، ولم ينه عن السؤال، لكون الذين يسألونه من الأعراب كما روت عائشة رضي الله عنها قالت: كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدت إنسان منهم فقال: "إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ" وفي رواية قالت كان رجال من الأعراب حفاة يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: "إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ"<sup>20</sup>. وقال أيضاً: "وفي هذا المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم إنكار وكراهية للسؤال وهو تفسير للسكوت الذي بدا منه أول الأمر"<sup>21</sup>.

ت- الإشارات والحركات الجسمية

وهي ما يعبر عنها بلغة الجسد،<sup>22</sup> ويرى بعض الباحثين أن الناس يكثرون من استخدام الحركة الجسمية مع الكلام إلى الحد الذي يمكن معه القول: لو كان نصف سكان العالم مصابين بالصمم فإن الناس مع ذلك يمكنهم التفاهم بينهم<sup>23</sup>. وفي دراسة قام بها أحد علماء النفس اكتشف أن 7% فقط من الاتصال يكون بالكلمات و 38% بنبرة الصوت و 55% بلغة الجسد، ولو اختلفت الكلمات ولغة الجسد فإن الفرد يميل إلى تصديق لغة الجسد.

وتشمل الحركة الجسمية جميع أعضاء الجسم، فلا تقتصر على عضو ما كاليد أو الوجه بأعضائه أو الرأس، وإن كانت هذه أكثر الأعضاء أداء للحركات والإشارات التي تعبر عن المعاني والمشاعر.

ولا يقتصر التعبير بالحركة الجسمية على عضو منفرد كالإشارة بالأصبع مثلاً، بل يعبر عن بعض المعاني بالتقاء عضوين مثلاً كتقليب الكفين، كناية عن الندم والتحسر، أو جعل الأصابع في الأذان، كناية عن عدم السماع، وقد يعبر بالتقاء أحد أعضاء الجسم بشيء خارجه، كالأخذ بلعينة الأخر، ولذا عرفت الحركة (الإشارة) الجسمية بأنها أية حركة جسمية سوى الكلام تحدث شعورياً أو لا شعورياً بغية الاتصال مع الذات أو مع الآخرين<sup>24</sup>.

وقد تحدث الجاحظ (255هـ) عن أهمية الإشارات وأثرها في البيان فقال: "البيان لا يقتصر على اللفظ بل يشمل غيره، أما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمثقب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب، وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً. والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحليّة موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس"<sup>25</sup>

ثم قال: "وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان"<sup>26</sup>.

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم إشارات وحركات جسمية عديدة تدل على معنى ما، منها ما حصل ابتداء من النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما حصل نتيجة سلوك فعلي أو قولي صدر من أحد الناس، وبعض هذه الحركات تصاحب الخطاب اللفظي، وبعضها لا تصاحبه، بل هي بذاتها تكون كافية في التعبير عن المراد وقد يحسن المخاطب فهمهما فيكتفي بها، وقد لا يكتفي بها لسبب ما وهي تعد لدى المخاطب كناية عن المعنى الذي تدل عليه.

وهذه بعض الأمثلة مما يناسب مقتضى الحال - ذكرها الشيخ في رسالته-<sup>27</sup>.

## 1- الفرح والاستبشار

وورد في ذلك التعبير عن الوجه بالاستنارة والبروق في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه لما سمع البشارة بالتوبة قال: انطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشِرْ بخير يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدتك أمك" وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعت قمر، وكنا نعرف ذلك منه. وقد صاحب هذه الحركة التي تدل على التبشير والسرور بالقول<sup>28</sup>.

## 2- الحب والامتنان

وظهر ذلك في طريقة قيامه صلى الله عليه وسلم حين أبصر نساء وصبياناً من الأنصار مقبلين من عرس، قال أنس رضي الله عنه فقار مُمْتَنِّئاً، وفي رواية: مُمْتَلِئاً، وكلاهما هنا بمعنى قام قياماً قوياً، قال أنس رضي الله عنه فقال صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ أَنْشُرْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ" قالها ثلاث مرات<sup>29</sup>. وإقبال المرء إلى من يحب هاشاً باشاً يوحي بمشاعر الحب الكامنة في النفس ما لا يوحيه كثير من الكلام، والله اعلم<sup>30</sup>. ومن التعبير عن الحب ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق من أسواق المدينة، فانصرف، فقال: "أَيْنَ لُكْعُ؟" ثلاثاً "ادْعُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ" فقار الحسن بن علي يمشي، وفي عنقه السَّخَابُ<sup>31</sup>، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هكذا، فقال الحسن بيده هكذا، فالتزمه، فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ"<sup>32</sup>، ولعل كون الحسن طفلاً يحتاج إلى هذا التعامل العاطفي أبدى له النبي صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى حبه له ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بدلالات هذه الحركة التي مد فيها النبي صلى الله عليه وسلم يده لاحتضانه، بل صاحب ذلك إخباره عن مشاعر الحب التي يكنها له النبي صلى الله عليه وسلم، بل أسمع الدعاء بمحبة الله عز وجل له ولمن يحبه<sup>33</sup>.

## 3- التناؤل بالشفاء

وتحقق ذلك بإمرار اليد على بعض جسد المريض مع الدعاء له، كما في رواية لحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنه قال: تشكيت بمكة شكوى شديدة فجاءني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني. وفيها: ثم وضع يده على جبهتي، ثم مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: "اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأْتِمِّمْ لَهُ هِجْرَتَهُ" فما زلت أجد برده على كبدي - فيما يُخَالِ إلي - حتى الساعة<sup>34</sup>، وهذه اللمسة الحانية المضمرة بالحب والرحمة والأمل فيها تأنيس للمريض، وما أحوجه إليه، وتعمق في نفس التناؤل بالشفاء<sup>35</sup>.

## 4- الشكر والمكافأة

من ذلك ضم ابن عباس رضي الله عنه وهو لم يزل غلاماً بعد أن دخل النبي صلى الله عليه وسلم الخلاء، فوضع له ابن عباس وضوءاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ وَضَعَ هَذَا؟" فأخبر، فضمه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ"<sup>36</sup>. وقد سبق أن ضم الطفل، واختيار الدعاء مكافأة له فيه مراعاة لحاله، لما فيه من تعبير عاطفي تجاه المخاطب، والمخاطب طفل بحاجة إلى التعامل العاطفي معه، وإشعاره بقبوله، وتقبل العمل الحسن الذي يقوم به<sup>37</sup>.

#### 5- الحث والتحفيز، والإعجاب

وجاء بحركة العينين كما في قصة حديث عائشة رضي الله عنها في إهداء النساء النبي صلى الله عليه وسلم في يومها، قال: فأرسلن زينب بنت جحش، فأنتته فأغلظت وقالت: إن نسائك يتشدنك الله العدل في بنت أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبته حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لينظر إلى عائشة؛ هل تتكلم؟ فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة وقال: "أَلَيْهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ". فلعل في نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أول مرة دعوة لها إلى أن لا يمنعها من وجوده صلى الله عليه وسلم أن تنتصر لنفسها، فتترد عن نفسها السب والقول، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يحث بالقول لئلا يثير مزيداً من الغيرة بين نسائه، فجاء الحث بنظر العينين فكان أن ردت على زينب رضي الله عنها حتى أسكتتها، فنظر إليها مرة أخرى نظر إعجاب، وأثنى عليها صبرها في مقابل السب والتحقير الذي حصل تجاهها من زينب رضي الله عنها وعن أمهات المؤمنين، والله أعلم<sup>38</sup>.

#### 6- اللينونة و التلطف

من ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة فلم يجد علياً في البيت، فقال: "أَيْنَ ابْنُ عَمَّكَ؟" قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يقل عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنسان: "انظُرْ أَيْنَ هُوَ؟" فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع، فقد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه، ويقول "فَمُ أَبَا ثَرَابٍ، فَمُ أَبَا ثَرَابٍ"<sup>39</sup>.

ومسح النبي صلى الله عليه وسلم التراب باليد عن زوج البنت يراد به إظهار التلطف به لإرضائه، قال ابن حجر (852هـ) ذاكراً من فوائد الحديث: "فيه كرم خلق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه توجه نحو علي ليعرضه ومسح التراب عن ظهره لييسطه"<sup>40</sup>.

#### 7- الاستحياء

وورد في ذلك الإعراض بالوجه من أمر يستحي من الحديث فيه، خاصة أن المخاطب امرأة، فعن عائشة رضي الله عنه أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها في

المحيض فقال: "تأخذ إحدائكن ماءها وسدرتها، فتطهر، فتحسن الطهر، ثم تصب على رأسها، فتدلكه ذلك شديداً، حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تصب عليها الماء، ثم تأخذ فرصةً ممسكةً فتطهر بها" فقالت: وكيف تطهر بها؟ فقال: "سبحان الله! تطهرين بها" قالت عائشة: ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استحيا فأعرض بوجهه وفي رواية: قال: "تطهري بها سبحان الله!" واستتر، قال أحد الرواة: وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده على وجهه. قالت عائشة: فعرفت ما أراد النبي صلى الله عليه وسلم، فاجتذبتني إلي، فقلت: تتبعني بها أثر الدم<sup>41</sup>.

وهذا مقام من مقامات الكناية، إذ الحياء من دواعي العدول عن التصريح إلى الكناية والتعريض وقد تعاضد مع كناية هذه الحركة الإيجاز في الكلام والتعجب، قال ابن حجر (852هـ) ذكراً من فوائد الحديث: "فيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة في الأمور المستهجنة، وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أولاً لأن الجواب به يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله "توضئي" أي في المحل الذي يستحيا من مواجهة المرأة بالتصريح به، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال؛ وفهمت عائشة رضي الله عنها ذلك عنه، فتولت تعليمها"<sup>42</sup>.

#### 8- الإنكار وعدم الرضا

وورد في ذلك تغير الوجه وتلونته مما يظهر معه البؤس والتقطيب، مع الوقوف وعدم الدخول، لوجود صور في بيته، وضعتها عائشة رضي الله عنها، وكان لهذه الحركات أثر في إبراز عظم الفعل، فقد فهمت عائشة أنها فعلت منكراً، وأعلنت التوبة وإن كانت لا تدري ما ذنبها بالتحديد، فعن عائشة رضي الله عنها أنها اشترت تمرقةً فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب، فلم يدخله، فعرف في وجهه الكراهية - وفي رواية قالت: وجعل يتغير وجهه - فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَمَا بَالُ هَذِهِ التَّمْرِقَةِ؟" قلت: اشتريتها لك؛ لتتعد عليها، وتوسدها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ"، وقال: "إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّورُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ"<sup>43</sup>.

#### 9- الرفض وعدم القبول

ومن ذلك الإعراض بالوجه أو بالجسم كناية عن رفض الأمر الذي يعرضه المخاطب، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها لما كلمت النبي صلى الله عليه وسلم في شأن إهداء الناس في يوم عائشة دون أيام نسائه الأخريات قالت: أعرض عني، فلما عاد إلي ذكرت ذاك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: "يَا أُمَّ سَلْمَةَ، لَا

ثُوذِينِي فِي عَائِشَتِهِ... الحديث<sup>44</sup>، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم عبر بالحركة إشعاراً لها بالرفض، وتلافياً لإثارة مزيد من الغيرة بين نساءه، إلا أن إلحاح أم سلمة جعله يكلمها، فينهاها عن إيذائه في عائشة رضي الله عنها<sup>45</sup>.

#### 10- الغضب

ويدل عليه احمرار الوجه، كما في قصة الثبات على الدين التي رواها خباب بن الأرت رضي الله عنه وفيها أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقي المسلمون من المشركين شدة، فقال: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو محمر الوجه، فذكر له قصة الرجل الذي يعذب فيثبث. واحمر وجه النبي صلى الله عليه وسلم، كناية عن غضبه من ضعف الصبر وقتل التحمل واستعجال النصر، وفيه إشعار للمخاطب بأن ما سيخاطبه به النبي صلى الله عليه وسلم فيه قوة وغضب، فيكون هذا الانفعال مهدياً لقبول الخطاب، والله أعلم<sup>46</sup>.

ومن التبسم ما يكون كناية عن الغضب، كما حصل لكعب بن مالك رضي الله عنه حينما تخلف عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم قال كعب بن مالك رضي الله عنه راوي القصة: فجئته، فلما سلمت عليه تتسم تبسم المغضب<sup>47</sup>.

#### 11- التأسف

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمته بنت النبي صلى الله عليه وسلم ليلته، فقال: "ألا تُصَلِّيَان؟" فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فأنصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مولى يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾<sup>48</sup>. والذي يظهر أنه ضرب الفخذ كناية عن التأسف والتعجب من جواب علي رضي الله عنه، وعدم الموافقة على هذا الاعتذار، وفيه تعريض لعلي بالاستجابة والمبادرة إلى ما يُحث عليه، وترك الجدل فيه، ولهذا جعل جوابه من باب الجدل<sup>49</sup>، والله أعلم.

#### 12- العقوبة والزجر

قال كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفس: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، قال الشيخ: وإعراض النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام عقوبة لكعب رضي الله عنه على تخلفه عن الغزوة بلا عذر، ولقد كان لهذه العقوبة التي استمرت خمسين يوماً أثر عظيم في نفس كعب وصاحبيه رضي الله عنهم<sup>50</sup>.

خاتمة:

إن اللسان على جلال قدره وعلى ما هبئ الله له من أدوات تزين له المقال، إلا أنه ليس المعبر الوحيد عما يختلج في نفس المتكلم من معان وأفكار، فاللسان هو واحد من مجموعة الوسائل التي تساهم في إيصال الفكرة وتميرها بين شخصين أو مجموعة أشخاص وهذا ما جنح إليه النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه فكانت هذه اللغة الصامتة أبلغ وأقل كلفة في حصول المقصود، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم من راعى حال المخاطب أثناء خطابه كيف لا وهو المبلغ عن ربه المؤيد من السماء، فلقد كان عليه الصلاة والسلام يتخير أحسن الألفاظ ملائمة للغرض المقصود حتى يضمن وصول الخطاب سليماً في أجل صورته غير حمال لوجوه منافية للقصد الذي من أجله كان ذاك الخطاب.

هذا ما يسر الله ذكره والله أعلى وأعلم وأجل وأكرم.

الهامش:

- 1 إن أحسن من كتب وجمع في هذا الموضوع الدكتور يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي في رسالته الموسومة بـ "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراسة بلاغية تحليلية"، لقد شدني أسلوبه الرائع في عرض وتحليل النصوص النبوية، لذلك وجدتني حبيس هذه النصوص التي اختارها، ومع وجود غيرها ومثيلاتها في كتب السنة إلا أنني تبنيتها حصراً لكونها جامعة مانعة، حتى الأفكار والنتائج التي حوaha بحثه الرائع كانت مما شدني ولفت انتباهي.
- 2 محمد الأمين موسى أحمد (2003). الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم. الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة. ص4.
- 3 ينظر: دراسات في علم اللغة للدكتورة فاطمة محجوب ص: 161 دار النهضة العربية القاهرة، والإشارات الجسمية للدكتور كريم زكي حسام الدين ص 3 دار غريب بالقاهرة طبعة 2 سنة 2001 والبيان بلا لسان للدكتور مهدي عرار ص 28، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 سنة 1428 واللغة واختلاف الجنسين للدكتور أحمد مختار عمر ص 141 دار عالم الكتب بالقاهرة ط 1 سنة 1416.
- 4 ينظر: الإشارات الجسمية: 34-39، والبيان بلا لسان: 73-136.
- 5 البيان والتبيين للجاحظ 116/1 تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة ط 5 سنة 1405.
- 6 البيان والتبيين: 57/1 - 76.
- 7 اللغة واختلاف الجنسين: 129.
- 8 رسالتهم مقدمة تقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي لنيل درجة العالمية العالية [الدكتوراه] وقد أشرف عليها أ.د. محمد بن علي بن محمد الصامل. وهي متواجدة على النت بشكل PDF
- 9 إن المدونة التي اعتمدها الدكتور يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي في رسالته القيمة هي ذاتها التي اعتمدها في مقالتي، ولقد حاولت جاهداً أن أخالفه بأحاديث أخرى تحمل ذات المعاني لكنني وجدت ما ساقه من أحاديث صحاح أجمع وأمنع، فلذلك لم أخرج على ما ذكر من أحاديث.
- 10 أخرجه مسلم (1043) صحيح مسلم تحقيق ر فؤاد ع الباقي المكتبة الإسلامية تركيا ط 1 سنة 1374.
- 11 ينظر رسالتي "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين" ص 246.
- 12 ينظر: لسان العرب لابن منظور: 43/2 دار صادر بيروت.

- 13 ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي للدكتور أحمد عارف حجازي 143 - دار فرحة بالقاهرة ط1 سنة 2006.
- 14 ينظر رسالت "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين" ص 247.
- 15 البخاري: (5149).
- 16 أخرجه البخاري: (2311 و 5029 و 5030)، ومسلم: (1425).
- 17 البخاري: (5029 و 5141).
- 18 شرح صحيح مسلم 212/9 دار الفكر بيروت ط2 سنة 1392.
- 19 أخرجه البخاري: (59).
- 20 أخرجه البخاري: (6511)، ومسلم: (2952) واللفظ له.
- 21 ينظر رسالت "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين" ص 253.
- 22 ينظر: دراسات في علم اللغة: 159، ودراسات لسانية في الحديث النبوي: 89.
- 23 دراسات في علم اللغة: 161.
- 24 ينظر: دراسات في علم اللغة: 170 نقلا عن رسالت الشيخ.
- 25 البيان والتبيين: 77/1-78.
- 26 المرجع السابق: 79/1، وينظر: العمدة: 209/1.
- 27 ينظر رسالت "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية" ص 254.
- 28 ينظر رسالت "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين" ص 255.
- 29 أخرجه البخاري: (3785 و 5180)، مسلم: (2508).
- 30 رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية ص 255.
- 31 السُّخَابُ : القلادة تُتخذُ من قرْنِضٍ وسُكِّ ومَحَلَب ، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء.
- 32 أخرجه البخاري (2122 و 5884)، ومسلم: (2321).
- 33 المرجع السابق ص 239.
- 34 أخرجه البخاري: (5659).
- 35 ينظر رسالت "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين" ص 256.
- 36 أخرجه البخاري: (75 و 3756)
- 37 رعاية حال المخاطب ص 256.
- 38 المرجع السابق 257.
- 39 أخرجه البخاري: (411)، ومسلم: (2409).
- 40 فتح الباري: 588/10.
- 41 أخرجه البخاري: (314 و 315 و 7357)، ومسلم: (332).
- 42 فتح الباري: 614/1. وينظر رسالت رعاية حال المخاطب ص 258.
- 43 أخرجه البخاري: (2105 و 3224)، ومسلم (2107) وينظر رعاية حال المخاطب ص 259 .
- 44 البخاري: (3775).
- 45 رعاية حال المخاطب ص 259.
- 46 رعاية حال المخاطب ص 259.
- 47 أخرجه البخاري: (4418)، ومسلم: (2769) وينظر رعاية حال المخاطب ص 260 .
- 48 أخرجه البخاري: (1127 و 7347)، ومسلم (775).

49 ينظر: شرح صحيح مسلم: 6/65 وعمدة القاري لشرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني 146/25 دار  
إحياء التراث العربي بيروت لبنان وينظر رعايتة حال المخاطب ص 260.  
50 ينظر رسالته رعايتة حال المخاطب ص 261.